شاعر الغزل (*)

للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ سيد قطب

يبدو أن العقاد — في هذه الأيام — يهز الشجرة الناضجة هزاً رفيقاً ، فتساقط ثمارها في يسر ورخاء . وإنها لشجرة الجهد الموصول ، والاطلاع البصير ، والتجربة العميقة ، قرابة أربعين عاماً من عمر فنان موهوب ، لم يكد يراهق حتى بدأ حياته الأدبية في جد واحتفال ، وحتى كان الاطلاع عمله الأول ، والحياة الفنية وجهته الأصيلة .

وهذا مايفسر لنا ذلك الخصب في إنتاج السنوات الأخيرة ، بل السنة الأخيرة وحدها ؛ ففيها أخرج « عبقرية عمر » و « شاعر الغزل » ، وهو يتهيأ لإخراج كتاب عن « أبي بكر » في هذه الأيام . فضلاً عن « أعاصير مغرب » ديوانه الغنائي الأخير .

وفي هذه الكتب جميعاً — على تفاوت بينها — يبدو أن الثمار الناضجة تساقط بأيسر جهد ، وأن الشجرة مهيئة ما تكاد تلمس حتى تعطي الجنى الشهي في رفق ولين !

ظهر كتاب « عبقرية محمد » فقلت : « هذا كتاب العقاد » ثم ظهر كتاب « عبقرية عمر » فقلت : « لا ! بل هذا هو كتاب العقاد ! » ثم هأنذا أكاد أعيدها وأنا أقرأ كتابه الصغير « شاعر الغزل » في الشهر الأخير .

إن هذا الكتيب يستقل بإنشاء مدرسة جديدة في النقد الأدبي باللغة العربية . مدرسة لها طريقتها ولها قواعدها ولها أدواتها ، وكل ذلك في يسر ووضوح يكادان يغريان كل قارئ بأن يسلك الطريق ويتخذ القواعد والأدوات ، ويروح ينشئ في النقد الأدبي ما أنشأ العقاد !

لقد قلتها مرة : إن العقاد دارس الشخصيات الأول ، حين لاحظت أن أفضل مواهبه تنصرف إلى هذا اللون من الإنتاج ، وأن ميزته فيما يدرس أن يعطيك « مفتاح الشخصية » التي يتناولها ، فتتعرف على الفور « من هو » هذا الإنسان الذي يحدثك عنه ، وتتبين سماته وملامحه من بين الملايين أو من بين الألوف الذين ينتمي إليهم ويندمج فيهم ؛ كما تستطيع أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث والأعمال التي تنسب إليه أو عدم صحتها ، ولو لم ترد في دراسة العقاد له ، لأنك أصبحت تعرفه ، وتدرك خصائصه ، وتلحظ مزاجه ؛ وتعلم ما يمكن أن يأتي أو يدع من الأمور ؛ شأنك في هذا شأن الصاحب الذي أطال عشرة صاحبه ، فعرف أعمق خوالجه وأدق « لوازمه » !

هذا اللون من الدراسة يستهويني أكثر من السِّيَر التي تتناول حياة الأشخاص بالسرد ، وتجمع حولهم كل المعلومات التي لابست هذه الحياة . ذلك أن اللون الأول يمنحني حياة آدمية نابضة ، واللون الثاني يضع بين يدي معلومات في حيز من الزمان والمكان . وكلا اللونين ضروري للتراث الفني ، ولكن أولهما آثر عندي لميزته تلك .

وفي كل ما كتب العقاد عن الشخصيات تتضح هذه الميزة ، وإنها لتتضح في كتب الدراسة الكاملة أمثال : « ابن الرومي » و « سعد زغلول » و « تذكار جيتي » و « هتلر في الميزان » ثم تبلغ أقصى درجات النضوج في الكتب الثلاثة الأخيرة التي تقدم الحديث عنها حين يجتمع إلى عمق الدراسة وقوة المنطق ، ذلك اليسر العجيب وتلك الحركة السريعة في التفكير وفي الأداء على السواء .

و « شاعر الغزل » — على صغره — نموذج كامل لهذا اللون الحي من الدراسة الناضجة ؛ ففي خلال ثلاث وأربعين ومائة صفحة فقط من قطع الجيب ، ينتفض « عمر بن أبي ربيعة » من بين ركام الأجيال ، حيًّا نابضاً شاخصاً بسمته وريه ومزاجه وفنه ؛ وينبعث في حياته على الورق صورة مكتملة لحياته على الأرض ؛ حتى ليخيل إليك أنك وشيك أن تلقاه وتصافحه وأن تجلس إليه وتبادله الحديث !

وذلك هو الإبداع ! الإبداع الذي يصور « عمر بن أبي ربيعة » في هذا الحيز الصغير ، كما لم يصور قط في الأدب العربي كله بلا نزاع

* * *

والعقاد في عملية البحث والإحياء لا يأتي بحادثة واحدة ليست معروفة في سيرة هذا الشاعر ، ولا بقصيدة أو بيت أو شطرة لم ترو من قبل له ، ولا بخبر من أخباره أو أخبار عصره لم يدون في الكتب المتفرقة ؛ ولكنه يصنع من هذه الخامات البسيطة المعروفة مادة أخرى جديدة ، ويهيئ منها

(*) الحلقة الثانية من سلسلة « اقرأ »

هيكلاً قائماً للعصر وللبيئة وللشاعر ، ثم ينفخ فى هذا الهيكل من روحه ، فإذا هو خلقة سوية ، تحيا وتتنفس كما كانت تحيا وتتنفس من قبل ، فى هذه الدنيا الفانية !

وإنه ليهمنى هنا أن أبرز هذه الحقيقة ، فنحن فى مستهل نهضة فى البحث العلمي والفنى . ولكننى لاحظت على الإنتاج الجامعي الحديث بلا استثناء أنه يتجه إلى السرد والجمع والموازنة ، ولا يتجه مرة إلى الخلق والتكوين والإحياء ، فى تصوير العصور والبيئات والشخصيات ؛ وتلك ظاهرة خطرة ، فإنها تدل على أن عقلية التسجيل والتدوين والجمع هى التى تسيطر على العقلية الجامعية فى مصر . وهذا اللون من البحث ضرورى كما قلت ، ولكنه لا يبنى وحده ، ولا بد من اللون الآخر الذى يصور الحياة أو يهب الحياة !

وليس هذا اللون عدواً لذاك ، وإنهما ليجتمعان عند الاقتضاء ، وقد اجتمعا معاً فى كتاب « ابن الرومى . حياته من شعره » للعقاد ، وفى كتاب ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين على أفضل ما يكون الاجتماع .

إن طبيعة الشخصية التى يقدمها لى المؤلف ولون مزاجها ، وصورة حياتها ، لأثر عندى ألف مرة من جميع الحوادث التى وقعت لها ، ومن جميع المعلومات التى تتصل بها ، وحسبي من الحوادث والمعلومات ، ما يكشف لى عن الطبيعة والمزاج ، وما أتشوف به إلى هذه الشخصية من بين مئات الشخصيات !

* * *

يتحدث العقاد عن عصر « عمر بن أبى ربيعة » فنحس أن الغزل كان وظيفة ملحة فى هذا العصر تتطلب العضو الذى يقوم بأدائها ، وأنه لم يكن مفر من وجود شاعر غزل يلبى هذه الحاجة ، فكان هذا الشاعر هو عمر بن أبى ربيعة فى هذا الأوان .

كيف أحسنا بروح العصر هذا الإحساس الواضح الملح ؟ حكاية من هنا ونادرة من هناك ، مما هو معروف مذكور ، ومما يمر به القارئ بين الكتب مرات ، فإذا صورة العصر باروة واضحة على النحو الذى أراد !

وهنا يقتضينى الإنصاف — وقد ذكرت البحوث الجامعية والعقلية الجامعية بما ذكرت — أن أثبت أن للدكتور طه حسين بحثاً قيماً عن طبيعة العصر الذى عاش فيه عمر بن أبى ربيعة وعن نشأة الغزل وأسبابها فى هذا العصر ، وعن تلون هذا الغزل بالألوان التى اصطبغ بها إذ ذاك ، فى كتاب « حديث الأربعاء »

وفى هذه الفصول التى عقدها الدكتور عن الغزل وعن عمر ابن أبى ربيعة خاصة يلتقى مع الصورة التى رسمها العقاد حيناً ويختلف حيناً ، ولكنه يرسم على طريقته صورة مكتملة للعصر وللغزل فيه ، هى إحدى الصور التى نتطلبها فى الدراسات الأدبية الناضجة

ثم نعود إلى « شاعر الغزل » فنرى العقاد ينتهى من صورة العصر ومن وظيفة عمر فيه ، ومن حدود هذه الوظيفة ، وهى التعبير عن طبقة خاصة فى العصر لا عن العصر كله على السواء ، ليبحث عن طبيعة غزله ؛ فهو غزل البدوى المتحضر ، غزل الفطرة التى تخلقها الحياة فى مكة ، وقد فارقتها الحكومة والسلطان ، ولم تفارقها الثروة والسراوة

ثم يدلف إلى الحديث عن طبيعة شعره ، فيفرق فى وضوح ويسر تكاد تلمسهما بين طبيعتين من طبائع شعراء الغزل : طبيعة المحب الذى يتوجه بحبه إلى المرأة الواحدة فى الوقت الواحد ، و « يفرزها » بحبه من بين جميع النساء . وطبيعة اللاهى الذى يتغزل فى الأنثيات ، وينصرف همه إلى المناوشة والمعابثة . ويكون عمر من الفريق الثانى حين يكون عروة وكثير وجميل من الفريق الأول . وهو فصل من أمتع فصول الكتاب

هذا المتاع لا يتضمنه ذلك الفصل لأنه يذكر أن طريقة عمر وإخوانه الغزليين غير طريقة عروة وإخوانه العذريين ، ولكن لأنه يوضح الفارق الإنسانى الحاسم بين طبيعة هؤلاء وطبيعة هؤلاء

« لأن علاقة رجل بامرأة واحدة يبقى على حبها زمناً طويلاً أو يبقى على حبها مدى الحياة هى حادث لا يتكرر كل يوم ، ولا بد فيه من عامل الشخصية التى تفرز المرأة من سائر النساء ، ويصح أن يقال : إن هذه العلاقة « إصابة حب » كسائر الإصابات التى يتعرض لها الإنسان فتطول أو لا تطول ، وتصيبه وهو مستعد لها أو تصيبه على غير استعداد ؛ فإنما المهم فى تميزها أنها إصابة عارضة وحادث من عوارض الأحداث

« أما حب الغزل بالنساء عامة فهو مزاج يلازم صاحبه ملازمة الأمزجة للطبائع ولو لم يتصل بنساء معروفات ، فهو مخلوق على هذا المزاج كما يخلق الإنسان بلون من الألوان أو صفة من الصفات »

. . . . . .

« فالمدرستان مختلفتان أيما اختلاف فى مقاييس الشعور ومقاييس الأخلاق ، ولا يجمع بينهما إلا تشابه الكلام فى ظاهره

دون التشابه فى الباعث والاتجاه » . . . الخ

وأحب أن يعود القارئ هنا إلى ص ٣٩٢ من الجزء الأول من « حديث الأربعاء » للدكتور طه حسين ، فسيجد فى هذا الموضوع كلاماً آخر تلذ الموازنة بينه وبين هذا الكلام

ونعود إلى « شاعر الغزل » لنقع على نقطة جديدة كل الجدة لم يطرقها - فيما أذكر - طارق فى اللغة العربية لا عن « عمر بن أبى ربيعة » ولا عن سواه . تلك هى النقطة التى يعرض فيها العقاد لبحث عوامل الاتصال بين « عمر » وبين الأنثيات اللواتى كان يناوشهن بالغزل والحديث ، وبين أشباه عمر وبين النساء فى جميع العصور . فهو يقول :

« وربما رشحه للسبق فى هذه الصناعة جانب أنثوى فى طبعه يظهر للقارئ من أبياته الكثيرة التى تنم على ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها والإبداء والإعادة فيها ، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة . وأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى فى طبعه أنه كان يشبههن فى تدليل نفسه وإظهار التمنع لطالباته . . . (ثم يذكر الأمثال)

« ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شىء كما يظهر من تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد فى أحاديث النساء ؛ فهو تارة أبو الخطاب ، وتارة المغيرى ، وتارة عمر الذى لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التى يقارب بها المرأة فى المزاج ويسايرها فى الحديث »

. . . . . .

« إنما تأتى خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الإحساس بين المرأة وبين هذه الطائفة من اللاهين والمتغزلين ، فهم يحسون كما تحس أو على نحو قريب مما تحس ، وهم يشبهونها بعض الشبه فيصدقون فى الحكاية عنها ، والتحدث بخوالج نفسها . وفرق بعيد بين هذا وبين الرجل الذى يعلم طبع المرأة وهو يخالفها فى طبعها ، ويستجيش ضمائرها ، لأن هذه الضمائر تجاوبه بمجاوبة الأنثى للذكر ، فيعرف من مجاوبتها كيف تضطرب نفسها وتنقلب هواجسها وخواطرها . هذا يرى أثر الرجل فى طبع المرأة فيعرفه ، وذاك يعرف ما فى طبعها لأن الطبعين غير مختلفين فى جملة الشعور » . الخ

فهذا كلام جديد ، وكلام قيم ، وكلام يفتح العين والنفس على ملاحظة مفيدة للملامح والسمات فى النفوس الإنسانية الكثيرة التى تصادفنا فى الحياة ، والنفوس الإنسانية الكثيرة التى نلقاها فى صفحات الكتب ، لنجد فى هذه الملاحظة لذة وأنساً وحياة

وأحب مرة أخرى أن يرجع القارئ هنا إلى الجزء الأول من « حديث الأربعاء » ص ٣٩٤ ليجد فى هذا الموضوع كلاماً آخر تلذ الموازنة بينه وبين هذا الكلام

وينتهى هذا الفصل بحديث عن الصدق الفنى : ما معناه وما حدوده ، فيبين أوضح بيان أنه شىء آخر غير الصدق الخلقى والصدق التاريخى قد يلتقى معهما وقد لا يلتقى . وأنه فى صميمه هو صدق الحكاية عن « المزاج الخاص » الذى لا يتوب عنه صاحبه ولا يملك الانحراف عنه ولو تاب عن دفعاته وملابساته ، ولو انحرف عن حكاية الواقع إلى حكاية الخيال

وفى هذا الفصل يلتقى العقاد والدكتور فى بعض المواضع ، وإن سار كل منهما على طريقته وطبيعته فى النظر إلى الأشياء ، وفى الحديث عن هذه الأشياء

ثم ينشىء فصلاً عن صناعة عمر ابن أبى ربيعة فنعلم منه أن عمر كان إمام مدرسة فى طريقته ، ولكنه لم يكن إماما فى صناعته ؛ فهو يمثل الطريقة أكمل تمثيل ، وإن لم يساعفه حسن الأداء وكمال الأداة « فالأكثر من شعره يبدو عليه الجهد والإعياء فى تقويم البيت والوصول به إلى القافية » وليس هو من فحول الصناعة الذين « ربما كثر الردىء فى أشعارهم وأربى على الجيد فى معظم الأحيان ؛ ولكن الإتيان بالردىء غير الإعياء الذى يكشف مدى الطاقة ويتم على الفاقة »

ويمثل هذه الصناعة يمضى إلى نهاية الكتاب ، فيفرق بين القصة وبين الحوار القصصى الذى عرف به عمر ، ويلقى أشعة أخرى على طبيعة الحب وطبيعة التغزل وعلى الصدق الفنى والصدق الخلقى والتاريخى . ثم يتحدث عن ذوق عمر فى جمال المرأة ، فإذا هذا كله دراسة من أبرع الدراسات النفسية فى إطار فنى جميل ، وإذا هى خلاصات من تجارب العقاد وحياته الفنية وذوقه الإنسانى . ثم يعقد فصلاً لنوادر عمر وأخباره ، وفصلاً لمختارات من شعره ، يشترك كلاهما فى تلوين صورة الشاعر وتوضيح سماتها ، وإطلاق الأبخرة المناسبة فى جوها ، حتى تكتمل لها جميع عناصر الحياة !

* * *